تقديم

ساري حنفي*

يُعدّ زيغمونت باومان من أعظم علماء الاجتماع، وقد رحل عن عالمنا منذ فترة قصيرة تاركًا آثارًا جمة عن تطور الفكر والنظرية الاجتماعية في العالم. و«**التفكير سوسيولوجيًا**» في طبعته الثالثة باللغة الإنجليزية (أي بعد عقد ونيف من الطبعة الأولى) هو نتاج فكري مشترك بين باومان وتِم ماي، والأخير هو سوسيولوجي مرموق بجامعة شيفيلد في بريطانيا.

يُناقش هذا الكتاب خلال فصوله العشرة مفاهيم سوسيولوجية أساسية مثل التنشئة الاجتماعية والهوية والجنس والجنسانية والاستهلاك والجسد والتكنولوجيا، وكذلك بعض القضايا المعيارية والموجهة قيميًّا، وهذا جزء من مشروع باومان الكبير عن الأخلاق والإقصاء والحب.... ولن أناقش هنا هذه المفاهيم، بل سأكتفي بالربط بين السوسيولوجيا والفلسفة الأخلاقية.

ربما أهم ما يميز هذا الكتاب هو التأكيد على أن مهمة الباحث الاجتماعي ليست وصفًا للعلاقات الاجتماعية فحسب، بل أيضًا الاشتغال بها معياريًّا. فالسؤال المحوري للسوسيولوجيا حسب هذا الكتاب ليس فقط «كيف ترتبط

(*) أستاذ علم الاجتماع، الجامعة الأمريكية في بيروت.

أنماط العلاقات الاجتماعية والمجتمعات التي نعيش فيها بالطرق التي نرى بها أنفسنا وغيرنا، ونبني بها معرفتنا، ونرى بها بيئتنا؟» وإنما أيضًا «ما العواقب المترتبة على ذلك؟». وهذه المعيارية لا تعني إصدار أحكام قيمة صارمة ضد اتجاه ما، بل تعني التأكيد على عواقب بعض مصائر الحداثة.

يطرح المؤلفان قضايا اجتماعية كثيرة نظريًّا، ويؤكدان من خلال ذكر عدد من الأمثلة أن هناك طريقة مسؤولة للتفكير السوسيولوجي. ويرى باومان، في هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى، أن المسؤولية تسبق الحرية، وهذا على شاكلة الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس والفيلسوف اللبناني ناصيف نصار (2003).

أجمل ما في هذا الكتاب هو النقاش حول مفهوم «الحس العام» common sense؛ فمع أن السوسيولوجيا ترتبط بهذا المفهوم فإنها تتعامل معه بأسلوب نقدي، وتقدم إجابات عن أسئلة هذا الحس بطريقة منهجية ومنظمة فكريًّا، وذلك من خلال طرق لها دلالات على مكانتها وممارستها. كما يرتبط هذا التفكير الاجتماعي بالقدرة على النظر إلى جدلية الفرد والبنية الاجتماعية، وكيف يرتبط هذا الديالكتيك ارتباطًا وثيقًا بالحس العام كما يختلف عنه نوعيًّا في آن واحد. وهذا ما يُكسب السوسيولوجيا أهمية لدى الجمهور ومقرري السياسات العامة. ويطرح هذا الاختصاص الكثير من الأفكار المثيرة للجدل، وذلك عندما تؤخذ مسافة بين الحس العام ومصالح بعض الفئات الاجتماعية، وعندما تُناصر الحركات الاجتماعية لزعزعة استقرار هياكل السلطة المهيمنة، وكذلك عند جعل هذه الأفكار مفاهيم مصنوعة اجتماعيًّا بدلاً من ظهورها وكأنها كيانات طبيعية. وتهتم هذه السوسيولوجيا بالتنظير لحدود وهم الحرية عندما يكون الإنسان مجبرًا على الاختيار داخل اللعبة ولا يستطيع تغييرها، كما تُنادي بتعزيز حرية الفرد بدفعه ناحية التفكر والمسؤولية تجاه الآخرين.

لا يُفهم من الكتاب أن الإنسان في علاقته مع الآخر مدفوع فقط بالمصلحة الذاتية والتبادلات الاقتصادية الساعية للربح والمتعة، وإنما مدفوع أيضًا بالحب والحميمية والشعور بالتضامن بين الناس. ولذا سيكون هناك فصل خاص عن

الهدايا والتبادل والحميمية (الفصل الخامس). وهذه المقاربة تتفق مع مدرسة التآلفية الدولية International convivialiste التي أطلقها رئيس الحركة الفرنسية المناهضة للنفعية «آلان كايليه»، ولدى هذه المدرسة الفكرية بيانان، وقد صدر البيان الثاني في عام 2020[1]. ونبّه كايليه (Caillé 2008) على أهمية براديغم الهبة والهدية، كما دفع بفرضية مناهضة للاتجاه النفعي utilitarianism؛ فرغبتنا في أن يتم تقييمنا بوصفنا معطائين تعني أن علاقاتنا لا تقوم على المصلحة وحدها فحسب، بل على المتعة والواجب الأخلاقي والعفوية أيضًا.

يُشكل الكتاب لبنة في ربط علم الاجتماع بالفلسفة الأخلاقية والتأسيس لنظرية سوسيولوجية للأخلاق، وذلك من خلال نقد بعض مظاهر الحداثة السائلة على شاكلة مايكل هرتسفيلد Michael Herzfeld في كتابه عن **الإنتاج الاجتماعي للامبالاة**. فيُبين هذا الكتاب كيف أن المؤسسات البيروقراطية قادرة على إسكات الدوافع الأخلاقية وتعليق المسؤولية الأخلاقية بفضل تكنولوجيا الإدارة، «ليس فقط لدى الموظفين، بل أيضًا خارج حدود المؤسسة نفسها. فهي تُحقق ذلك ليس فقط بالاحتكام إلى دافع الحفاظ على الذات، بل وتعاون ضحاياها واللامبالاة الأخلاقية من جانب المتفرجين». وقد يظهر امتثال استباقي، «فيبذل الضحايا قصارى جهدهم لإرضاء الجلادين بتخمين مقاصدهم مقدمًا وتنفيذها بحماسة شديدة. وبهذه الطريقة، يمكن لمديري الإبادة الجماعية تحقيق أهدافهم». وقد بيّن باومان بوضوح هذه المفارقة من خلال كتابه **الحداثة والهولوكوست**[2]

---

(1) شارك في التوقيع على هذا البيان ما يقرب من 300 مفكر من جميع التخصصات من 33 دولة، والتي تحدد خمسة مبادئ : طبيعة مشتركة، وإنسانية مشتركة، واجتماعية (sociality) مشتركة، وتفرد مشروع (legitimate individuation)، والمعارضة الخلاقة (دون أن يذبح أحدهما الآخر).

(2) انظر، زيجمونت باومان، **الحداثة والهولوكوست**، ترجمة حجاج أبو جبر، القاهرة، دار مدارات للأبحاث والنشر، 2014. وقد صدرت طبعة جديدة لهذه الترجمة عام 2019 عن المركز العربي للأبحاث والنشر في بيروت.

الذي يتناول فيه حالة قصوى (الهولوكوست) ليؤسس مقاربة سوسيولوجية لهذا الحدث بوصفه جزءًا من الحداثة، أو وجهًا من وجوهها، وليس بوصفه حالةً من الشذوذ أو الجنون الناجم عن انحراف عن الحداثة وطبيعتها. ويطور باومان تحليله النقدي في أمثلة أخرى في كتابه **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة**[1]، ويكشف كيف تقوم الحداثة السائلة بتسهيل عملية القضاء على الالتزامات الأخلاقية عن طريق المعالجة الإحصائية للأفعال البشرية، واختزال الأفراد إلى مجرد أرقام، فيفقدون طابعهم المميز، ويُحرمون من وجودهم المستقل بوصفهم أصحاب حقوق والتزامات أخلاقية[2].

يؤكد باومان أكثر من مرة على ضرورة النظر في المفردات والمفاهيم السوسيولوجية التقليدية من خلال انتقاد الافتراضات القائمة حول الواقع الاجتماعي. وهنا يظهر الفرق جليًّا بين باومان وأنتوني غيدنز. وسأوضح كيف تناول كلاهما قضايا العائلة والعلاقات الحميمية داخلها كبنية اجتماعية. فكلاهما قد بدأ بوصف وتحليل رائع لما آلت إليه هذه العلاقات، ولكنهما اختلفا في مهمة التحليل المعياري. لقد قام غيدنز بتوصيف لكيفية تَغَيُّر الأسرة من بنية اجتماعية تحافظ على الوظائف الثلاث: الإنجاب والحب وممارسة الجنس إلى الانفصال في العلاقات الاجتماعية بين هذه الوظائف الثلاثة. فمن خلال مفهوم «الحب المتدفق» confluent love، تُوصف المشاعر التي تربط شراكة الحب بأنه في لحظة معينة يحب الشريك شريكه، وينجذب كلٌّ منهما إلى الآخر، ويرغب في البقاء معه. وهكذا تكون شراكتهما ممتعة ومُرضية ومرغوبة. ولكن ليس هناك أي وعد أو ضمان بأن هذه الحالة الممتعة ستستمر وفق مقولة «نعيش معًا إلى أن يفرقنا الموت». ومن ثم، أصبح للمرء زوج لإنجاب طفل، وعشيقة ليحبها،

---

(1) صدرت ترجمة هذا الكتاب عن مشروع كلمة، أبو ظبي، 2016.

(2) صدرت الترجمة العربية لسلسلة السيولة التي وضعها باومان عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر. انظر: **سلسلة السيولة**، مجلدان (ثمانية كتب)، ترجمة حجاج أبو جبر، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019.

وامرأة ثالثة لممارسة الجنس معها. لقد احتفى غيدنز بما سماه «الجنسانية المرنة» (plastic sexuality)، وذلك في كتابه عن تحولات الحميمية (Giddens 2013).

أما «باومان» فقد قام بالنقد الصريح حينًا والمبطن أحيانًا لتبعات تخفيض قيمة عملة الحب. ويجلب الكتاب الذي بين أيدينا مثالًا من أعمال جان بودريار الذي يعدّ الحب حيلة دفاعية تُسمى «التنفيس» acting، وليس لديه الكثير ليقوله عنه الحب. وينتقد أيضًا هذا الكتاب الميل إلى إلغاء الإيروتيكا لتحل محلها الجنسانية أو النشاط الجنسي المحض .sexuality و«بعد تجريد الجنس من الحب، يتم اختزال الجنس إلى تفريغ التوتر والتنفيس عنه، واختزال الشريك إلى وسيلة قابلة للاستبدال في جوهرها لتحقيق غاية الإشباع». نفهم مما بين سطور الكتاب الذي بين يدينا أن باومان وماي يشعران بإشكالية تبعات ما سماه باومان «الحب السائل» والذي يرتبط ارتباطًا وثيقا بالحداثة السائلة، وهما يتفقان مع أعمال السوسيولوجية إيفا إيلوز حول نقدها للرأسمالية المشاعرية (Illouz 2007) وسلعنة الحب ورسملته في حداثنا الرأسمالية المتأخرة.

فهذا الكتاب يؤسس للتفكير السوسيولوجي من خلال هذا الحقل العملي الذي يتيح لنا عدسات يُمكننا من خلالها رؤية أنفسنا والآخرين والمجتمع ككل. فينظر للسوسيولوجيا بوصفها مهنة ورسالة تتطلب «مزيجًا متوازنًا من الثقة بالنفس والتواضع. كما تتطلب بعضًا من الشجاعة؛ ولذا فإن تفسير التجارب الإنسانية ليس نمط الحياة الذي يمكن أن نوصي به الحائرين».

هذا كتاب عظيم. فبينما يُصرح المؤلفان أنهما قد ألفا هذا الكتاب ليقرأه غير المختص، فإنه يُشكل تفكيرًا عميقًا وفهمًا جديدًا لما هي السوسيولوجيا اليوم (وكيف ينبغي أن تكون) ليس فقط لغير المختص، وإنما أيضًا للطلاب والباحثين في هذا الاختصاص.

المراجع

أولا، العربية

نصار، ناصيف. 2003. باب الحرية: انبثاق الوجود بالفعل. بيروت: دار الطليعة.

ثانيا، الإنجليزية

Caillé, Alain. 2008. "Beyond Self-Interest (An Anti-Utilitarian Theory of Action I)." *Revue Du MAUSS* No 31 (1): 175-200.

Giddens, Anthony. 2013. *The Transformation of Intimacy: Sexuality, Love and Eroticism in Modern Societies.* 1st edition. Polity.

Illouz, Eva. 2007. *Cold Intimacies: The Making of Emotional Capitalism.* 1st edition. Cambridge: Polity.

International convivialiste. 2020. *Second Manifeste Convivialiste: Pour Un Monde Post-Néolibéral.* Paris: Actes Sud.